هوامش

قد تصنع ذاكرة التاريخ مجتمعات أفضل، والمتاحف إحدى وسائل عرض هذه الذاكرة، وبينها متحف تاريخ غولاغ الذي يعرض مآسي العهد الستاليني، بأمل حث الناس على التفكير ببشرية أفضل

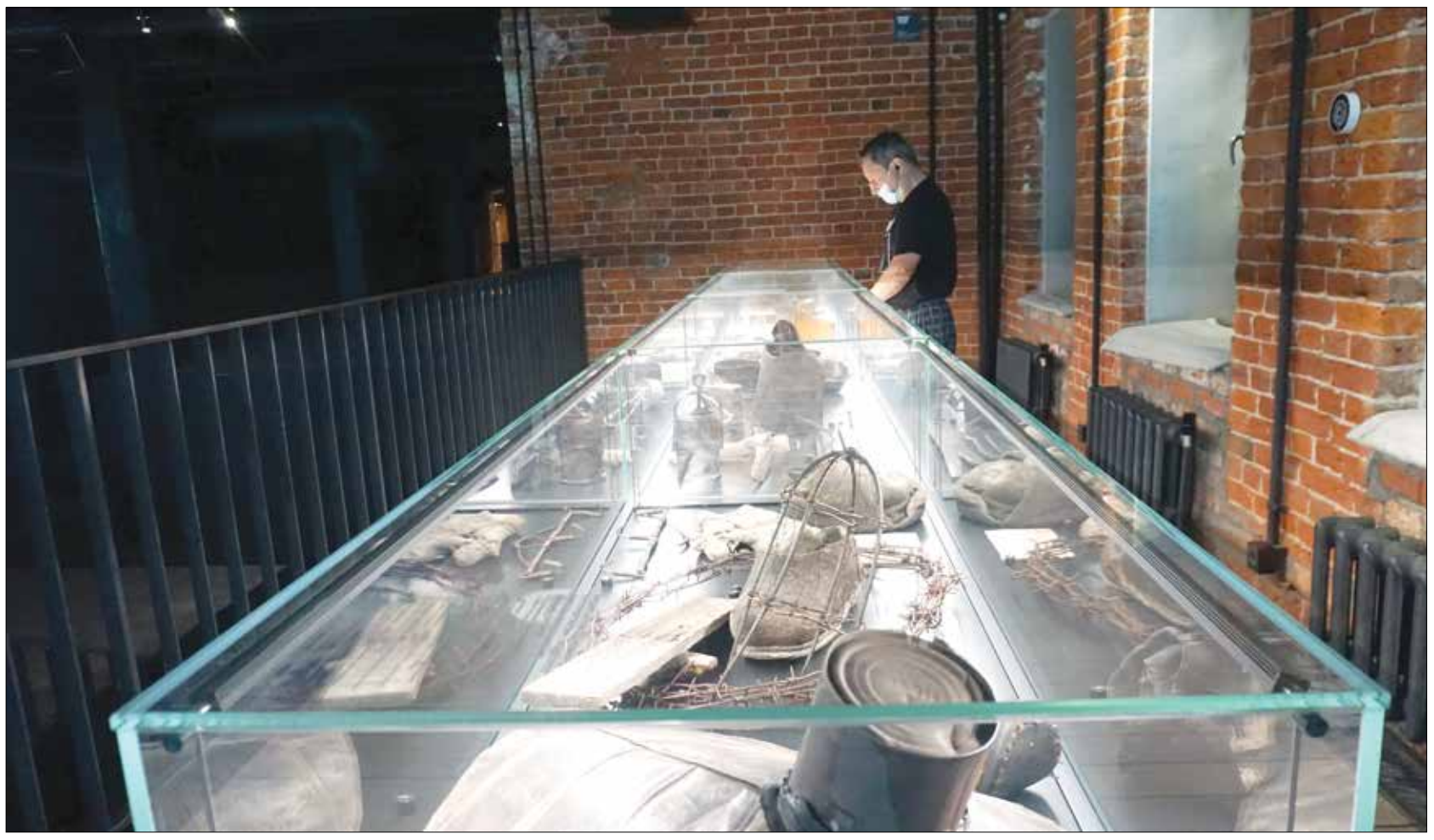

ينقل المتحف زواره إلى أجواء المعسكرات الستالينية (العربي الجديد)

متحف غولاغ «الستاليني»

أبرياء القمع السوفييتي في الذاكرة

موسكو ـ **رامي القليوبي**

وسط العاصمة موسكو ثمة مبنى بمعالم غير لافتة يضم متحف تاريخ غولاغ الذي يسلط الضوء على صفحات مأساوية من تاريخ الاتحاد السوفييتي السابق خلال فترة حكم الديكتاتور جوزيف ستالين، وموجات القمع التي شهدتها والتي طاولت الملايين، وبلغت ذروتها عام 1937.

تتحدد مهمة المتحف الذي تأسس عام 2001 وانتقل إلى موقعه الحالي عام 2015، بكشف حقائق قمع العهد الستاليني، ودفع زواره إلى التفكير في قيمة الحياة البشرية.

ويختصر اسم «غولاغ» عبارة «الإدارة العامة لمعسكرات العمل القسري» باللغة الروسية. وذاع صيته عالمياً بفضل رواية «أرخبيل غولاغ» للكاتب الراحل الحائز على جائزة نوبل للأدب عام 1970، ألكسندر سولجنتسين، والذي استند فيها إلى شهادات 257 معتقلاً، وتجاربهم الشخصية.

تشرح إحدى لافتات المتحف أن «قمع الدولة بدأ منذ الأيام الأولى لوصول السلطة السوفييتية إلى سدة الحكم عام 1917، وأن أي شخص كان يمكن أن يُصنّف ضمن أعداء الشعب، بسبب أصله أو مهنته أو انتمائه الحزبي وأسباب أخرى». في نهاية العشرينات من القرن العشرين، باشر الاتحاد السوفييتي في الانتقال بسرعة إلى المرحلة الصناعية، ما تسبّب في مشكلات اقتصادية مثل العجز المالي وتراجع مستوى معيشة العمال. وتحولت القيادة الستالينية حينها إلى صورة «العدو» في الرأي العام، بعدما شنّت سلسلة حملات اعتقال مهدت لتوسع نطاق القمع.

وبين عقدي العشرينات والخمسينات، ضمت أراضي الاتحاد السوفييتي نحو 500 معسكر عمل، تواجد عدد كبير منها في مناطق نائية غير مأهولة ذات برد قارس لا تتوافر فيها أبسط متطلبات الحياة اليومية، ما جعل المعتقلين لا يواجهون تحدي البقاء أحياء فقط، بل أيضا تحدي الحفاظ على كرامتهم ومكنونات عالمهم الداخلي. وخلال التجول بين غرف المتحف شبه المظلمة وذات جدران طوب الأحمر التي تفقدها «العربي الجديد»، يدخل الزوار في أجواء المعتقلات الستالينية، إذ تضم وثائق تاريخية مختلفة ومراسلات لمعتقلين ومذكرات كتبوها عن تجاربهم، إضافة إلى مواد صوتية وبصرية تعرض لقضايا القمع وشهادات المعتقلين. كما تتضمن الغرف مقتنيات شخصية لمعتقلين وأدوات استخدموها في معسكرات العمل القسري، من أجل بناء معظم المشاريع الضخمة خلال الحقبة الستالينية، وحتى مدنا بالكامل.

ويكشف المتحف عبر كتابات ورسوم وخرائط ممارسات القمع في عهد ستالين، والتي شملت في عامي 1937 و1938 وحدهما مليونا ونصف مليون شخص على الأقل، والذين أعدم أكثر من 680 ألفاً منهم رمياً بالرصاص. وغالبية المعتقلين كانوا مواطنين عاديين لم يشغلوا وظائف سياسية أو حكومية، علماً أن هذا الرقم لا يشمل أكثر من مليون شخص آخرين قضوا خلال 26 عاماً من وجود «غولاغ» بسبب الجوع والأمراض.

«إرهاب الدولة»

طوال الحقبة الستالينية ظل «إرهاب الدولة» أحد الأساليب الرئيسة للإدارة السياسية، فيما أجريت أكبر عملية ضد «العناصر المعادية للسوفييت» بموجب أمر حمل الرقم 447 وصدر في 30 يوليو/ تموز 1937، والذي حدد لكل مقاطعة وجمهورية «الواجبات» المتعلقة بعدد المراد إعدامهم أو اعتقالهم. وأعطى هذا الأمر تعليمات للمسؤولين المحليين لتصعيد القمع، وسمح لهم بمطالبة موسكو بـ «حصص إضافية» للاعتقالات والإعدامات، والتي اعتادت موسكو على الموافقة عليها.

ويعرض المتحف أيضاً صوراً ومعلومات حول حياة شخصيات بارزة تعرضت للقمع والاعتقال، بينها ألكسندرا تولستايا (ابنة الكاتب الروسي الشهير ليف تولستوي) التي اتهمت عام 1920 بتنفيذ نشاطات معادية للثورة (ثورة البلاشفة)، وسجنت في أحد المعسكرات.

وبين الشخصيات العلمية والثقافية البارزة التي اعتقلت، العالم والمصمم سيرغي كوروليوف، الذي كان أشرف على عملية إطلاق أول قمر صناعي وتنفيذ أول رحلة مأهولة إلى الفضاء، وكذلك مصمم الطائرات أندريه توبوليف، والشاعر نيقولاي غوميليوف وغيرهم.

ومن أشهر قضايا القمع الستاليني وملاحقة «أعداء الشعب»، ما عرف تاريخياً باسم «قضية الأطباء» التي طاولت مجموعة من كبار الأطباء في الاتحاد السوفييتي أتهموا بالتآمر لقتل زعماء سوفييت.

ولم يفرج عن معتقلين كثيرين، أو يردّ الاعتبار لهم، إلا بعد وفاة ستالين عام 1953 وحلول نيكيتا خروتشوف بدلاً منه.

ودخل المؤتمر الـ20 للحزب الشيوعي عام 1956، وهو الأول الذي نظم بعد وفاة ستالين، التاريخ، بعدما قدم خروتشوف خلاله تقريراً ندد فيه بعبادة الفرد ونتائجها، وجرائم ستالين وديكتاتوريته.

باختصار

يكشف المتحف حقائق قمع العهد الستاليني، ويدفع زواره إلى التفكير في قيمة الحياة البشرية.

■■■

يختصر اسم «غولاغ» عبارة «الإدارة العامة لمعسكرات العمل القسري» باللغة الروسية. وذاع صيته عالمياً بفضل رواية «أرخبيل غولاغ» للكاتب ألكسندر سولجنتسين.

■■■

المعتقلون لم يواجهوا فقط تحدي البقاء أحياء فقط، بل أيضا تحدي الحفاظ على كرامتهم ومكنونات عالمهم الداخلي.

وأخيراً

أيديولوجيات جديدة

رشا عمران

فكرة الأضحية قديمة قدم التاريخ، وظلت تمارس في كل الديانات الأرضية والسماوية، وأضحية عيد الأضحى أقدم من ظهور الإسلام بكثير، (موروث أسطوري)، إلا أن بعضهم يصرّ مع كل قدوم للعيد، على ربطها بظهور الإسلام، وكيل الاتهامات لأصحابها، مع أنها ربما من أكثر الطقوس الدينية تراحما وتشاركا إنسانيا. ومع ذلك تمتلئ صفحات مواقع التواصل الاجتماعي بالهجوم على هذا الطقس، وعلى الإسلام، وبالاستهزاء من المسلمين بطريقة فجّة ومنفرة. وتؤتي عكس ما يريد أصحابها، فهي تزيد تمسّك المؤمنين بإيمانهم وطقوسهم، وتربّي لديهم مظلومية تجعلهم مستفزّين من أي انتقادٍ يخصّ الدين، حتى لو كان رفضا للراديكالية الجهادية، وهو ما حدث مع ظهور تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) والتنظيمات الأخرى، حيث دافع عن وجودها متضرّرون منها، بسبب مظلومية اضطهاد المسلمين التي يشعر بها ملايين المسلمين، المضطهدين فعلا، ولكن من حكوماتهم وأنظمتهم، حيث الأوضاع الاقتصادية المتردّية، والتجهيل المتعمّد، والإقصاء عن الحياة السياسية والعامة، وعدم وضع الأنظمة خططا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تعين الشعوب على استرجاع حياتها المفقودة، عدا عن الحروب الحاصلة، والتهجير والتشريد، وكل ما سبّبته أنظمة الاستبداد لشعوبها الغارقة في البؤس.

ينقسم مهاجمو عيد الأضحى إلى عدة فئات: الأولى تهاجم كل ما يتعلق بالإسلام، ومنهم من يطلقون على أنفسهم «علمانيين»، مع أن العلمانية نظام حكم سياسي واجتماعي، ولا تتدخل بإيمان البشر وعقائدهم الذاتية. الثانية تعترض على فكرة الأضحية بحد ذاتها، وينتقدون «الإله» الذي يرضى بالأضاحي، ويهاجمون أصحاب الأضاحي بوصفهم «أغبياء» غرّرت بهم الأديان. الثالثة فئة «الدفاع عن حقوق الحيوانات»، يرون أن ذبح الأضاحي بالشكل المعتاد بالغ العنف، ولا رحمة فيه تجاه الحيوانات. الرابعة تضم أصحاب النظم الغذائية النباتية، ومن يسمّون «الفيجن»، وهم الفئة التي لا تأكل أي منتج حيواني، بما فيها الألبان والأجبان والبيض، وطبعا الأسماك. منطقهم أنه ليس من حق البشر الاعتداء على حياة المخلوقات الأخرى، وأن ما يفعلونه يساهم في سيطرة البشر على كوكب الأرض على حساب باقي المخلوقات. وعلى الرغم من نبل هذه النظرية، إلا أنها طوباوية، ولا يمكن تعميمها ولا فرضها، كما يرغب أصحابها. معظم «الفيجن»، على ما أعرف، أشخاص لادينيون، أو لا يؤمنون بالأديان السماوية على الأقل. والغالبية منهم واثقون من النظرية الداروينية لتطور البشرية، (أصل الإنسان حيوان). إذاً، غرائز الإنسان مشابهة لغرائز أصوله، الحيوانات. ومن الحيوانات آكلة اللحوم، ومنها عشبية، ومنها ما تأكل النوعين. وإذا ما جاع الحيوان، حتى العشبي، سوف يأكل كل ما يراه. الجوع يحفّز غريزة البقاء. وحين يشعر الكائن الحي بخطرٍ يهدّد وجوده يقوم بأي فعل يردع ذلك الخطر. ثمّة قصص عن بشر وضعتهم الظروف السياسية أو الحوادث الطبيعية في منطقةٍ تحفز غريزة البقاء. هؤلاء فعلوا، للبقاء على الحياة، ما تفعله الحيوانات اللاحمة، أكلوا لحم من مات من زملائهم وأصدقائهم. ماذا يمكن لمحاصرين في مكانٍ ما أن يفعلوه لمحاربة جوعهم وجوع أبنائهم؟ سوف يأكلون كل ما يمكن أكله. أكل كثيرون قططا وكلابا في أماكن محاصرة، وهي محرّمة في عقائدهم. لو زادت مدة الحصار، ولم يبق قطط وكلاب وقوارض، سوف يأكل بعضهم بعضا. حدث هذا كثيرا في التاريخ، ولا علاقة لهؤلاء بآكلي لحوم البشر، لقد جاعوا فقط وأرادوا البقاء على قيد الحياة. ماذا عمّن يعيشون في المحيط المتجمّد الشمالي (الأسكيمو)؟ لا يمكنهم البقاء على قيد الحياة سوى عبر اصطياد الحيوانات وأكلها. تفرض البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها عليهم نوعية طعامهم. لا يمكن لنبل فكرة، كالامتناع عن أكل كل منتج حيواني لأسبابٍ إنسانيةٍ، أن تستطيع منع سكان الأسكيمو من اصطياد الحيوانات وأكل لحومها.

> من حقّ أيّ كان أن يعيش كما يريد، وأن يأكل ما يريد. ليس من حقه أن تتحوّل رؤيته إلى أيديولوجيا جديدة

بالعودة إلى فكرة الأضاحي، ثمّة ملايين من البشر، خصوصا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تنتظر مع أولادها عيد الأضحى، لتستمتع بطعم اللحمة التي أصبحت طعام المترفين. هل يحق لأفكارنا (النبيلة)، ولإنسانيتنا تجاه باقي الكائنات، أن تمنع عنهم ما هو حلال، ولا يستطيعون الحصول عليه بسبب الفقر؟ من حقّ أيٍّ كان أن يعيش كما يريد، وأن يأكل ما يريد، ولكن ليس من حقه أن تتحوّل رؤيته إلى أيديولوجيا جديدة، ينظر بها، ويحاول فرضها على الآخرين.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 بيزة**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **دينارات**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**